وفيما أخذت جهود كيسنجر تتعثر، وخصوصاً بعد الرفض السوري، كانت موسكو تعمل، جاهدة، على تحسين مواقعها في أماكن أخرى: التقرب من ليبيا القذافي التي كانت خياراتها الاسلامية تتجسّد، في الأمس القريب، بعداء شديد ازاء الاتحاد السوفياتي «الملحد». وأكثر من ذلك، أيضاً، كانت موسكو تعمل على التقرب من ملك الاردن، حسين، الذي طالما اتهمته وسائل الاعلام السوفياتية بالولاء للامبريالية. كما أبدت استعدادها لتقديم الخبرات التقنية اللازمة لبلدان الخليج النفطية، اذا ما أرادت هذه البلدان، يوماً، الاستغناء عن الشركات الاجنبية. وعبر هذه الثغرة، حاولت موسكو الدخول في مجمل النظام الاقتصادي الشديد الحيوية للمصالح الاميركية في المنطقة. فاذا ما ترددت الولايات المتحدة الاميركية في تزويد الكويت ببعض الاعتدة العسكرية، فالاتحاد السوفياتي لن يتردّد؛ واذا ما تردّدت واشنطن في المساهمة في عملية التنمية الصناعية في الخليج، فان موسكو، شأنها شأن باريس، مثلاً، مستعدة لتقديم الخبرات التكنولوجية، التي قد لا تكون بالغة التطوّر، ولكنها أقل كلفة بالتأكيد. كما عرضت موسكو خدماتها التقنية على دولة الامارات العربية المتحدة التي كانت تحظى باعتراف رسمي من الحكومة السوفاتية[١]. ويبقى أهمّ من هذا كله استمرار التقرب السوفياتي من سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية.

تدهور المكانة السوفياتية

لا شك في ان الابتعاد المصري التدريجي من الاتحاد السوفياتي، الذي بدأ منذ العام ١٩٧٠، والازدياد في سرعة تحوّل القاهرة نحو الولايات المتحدة الاميركية، أسهما، بصورة جدّية، في اضعاف وتدهور المكانة السوفياتية في الشرق الاوسط. وازاء ذلك حافظت موسكو على خيارات دبلوماسية محدودة، طوال العام ١٩٧٥؛ حيث استمرت في التشديد على دور منظمة التحرير الفلسطينية في أي مباحثات مستقبلية تتعلق بالتسوية في الشرق الاوسط، وحثّت المنظمة على رصّ صفوفها، والتعاون مع الانظمة العربية «التقدمية». كما أولت وسائل الاعلام السوفياتية سوريا، أهمية أكبر، وزادت المعونة العسكرية السوفياتية لهذه الدولة الوحيدة، من بين دول المواجهة، التي حافظت على علاقات وثيقة بها[٢].

وبالفعل، فقد ظلّ المسار المتأرجح للعلاقة السوفياتية ـ المصرية ما بين الجمود والتردّي والميل نحو الانفراج والتحسّن، قائماً منذ نهاية العام ١٩٧٤. في حينه، ظهرت دلائل هامة تشير الى اتجاه هذه العلاقة نحو الانفراج والتحسّن، وتمثّل ذلك، في الزيارة التي قام بها وزير الخارجية المصرية، اسماعيل فهمي، الى موسكو، وفي اعلان الموعد الرسمي لزيارة كانت مقررة للزعيم السوفياتي، ليونيد بريجينيف الى القاهرة. غير ان العلاقة عادت الى التدهور، من جديد، في مطلع العام ١٩٧٥، وظهر ذلك، جلياً، في الزيارة المفاجئة التي قام بها فهمي، مجدداً، الى موسكو، وأسفرت عن اعلان تأجيل رحلة بريجينيف الى كل من مصر وسوريا والعراق، من دون ان تذكر الاسباب التي دعت الى ذلك[٣]. وعلى الرغم من انه قد قيل ان هذه الزيارة سوف تتم في موعد لاحق، وان السبب في الغائها ربما ارتبط بالعلاقات السوفياتية ـ العراقية، أو بالعلاقات السوفياتية ـ السورية، أو حتى بتعقيدات مبهمة من الجانب السوفياتي نفسه، فان ثمة عوامل دعت الى الاعتقاد بأن تدهور العلاقات السوفياتية ـ المصرية هو الذي أدّى، على الارجح، الى الغاء تلك الرحلة[٤]. فقد أجمعت التحليلات كافة على ان سبب التأجيل، في الدرجة الاساس، كان يتعلق بخلافات أساسية في وجهتي النظر السوفياتية والمصرية حول سبل التحرك نحو التسوية السلمية في المنطقة. في مقدم الخلافات، الموقف من